

عنوان المحاضرة: المعنى ومحدداته

المرحلة الرابعة.. مادة فقه اللغة.. أستاذ المادة: د. علي حاتم حسن

على الرغم من أن المعنى يعد واحد من موضوعات اللغة المهمة على مستوياتها المختلفة سواء أكانت لأجل التواصل أو لأجل أغراض أخرى فإن اللغة بمستوياتها المختلفة تعمل من أجل المعنى نفسه وهذا ما يجعل المعنى مميزاً حاضراً بقوة في الدراسة والتحليل والاستقصاء. وإذا كانت الدراسات الصوتية قادرة على تحديد هوية الصوت فإن النحو والتركيب والصرف خضع لمحددات واضحة على وفق نظريات استطاعت السيطرة عليه وتحديده.

المشكلة "أذن" كانت ولا زالت مع المعنى أو الدلالة ، الأمر الذي يدعونا الى ملاحظة الأسباب التي تقف وراء هذا التوصيف للمعنى بحيث أصبح امامه في ازمة حقيقية ولا سيما اذا اردنا ان نضع له محددات معينة تجعله منضوياً تحت مظلة مستويات اللغة الأخرى . ولكن وعلى الرغم من هذا العسر الواضح في هذا النوع من الدراسة فإن علماء اللغة والفلاسفة وعلماء الأنثروبولوجيا لاحقوا قضية المعنى وحاولوا ان يضعوا بعض المحددات من خلال مجموعة من النظريات المتباينة ، فكانت النظريات التقليدية هي التي بدأت هذا النوع من الدراسة ، إذ اعتمدت ثلاث محددات أساسية تمثلت في :

١- المحدد الإشاري الذي يلاحق المرجع الخارجي اعتماداً على فكرة أن الدليل (الدال + المدلول) يؤشر شيئاً خارجياً محدداً . وكلما اقتربنا من معرفة هوية هذا الشيء الخارجي على نحو جيد كلما حددنا الدلالة والمعنى .

لكن ليست كل المراجع قادرة ان تبث معنى او دلالة واحدة محددة لكل المتكلمين او المتلقين ، ودليلنا على هذا التفسير (الصليب) ، إذ ان دلالة هذا المرجع الخارجي المحسوس ليست واحدة للجميع فهو يعني للمسيحي غير ما يعنيه للمسلم وهو امر مؤكد. وهكذا دلالة المستشفى.

٢- المحدد اللساني الذي يعتمد دقة الدليل اللساني نفسه من حيث دلالاته ومعناه ومثالنا على ما نقول كلمة (طاولة) التي تعني الشكل الذي ترسخ في اذهاننا عن الطاولة نفسها بوصفها شيئاً خارجياً ولكن الاستدراك هنا يتمركز في ان الطاولة قد لا يمثلها شكل او هيئة واحدة فمجرد اضافة شيء بسيط الى صناعتها تتحول الى شيء آخر ، الأمر الذي نعتد فيه على توضيحه بما يرادفه من الألفاظ الأخرى ولكن الأمر لا يمكن أن يكون بهذه البساطة ، إذ للترادف تفسيره وحدوده وكذلك الترجمة تدخل في هذا المحدد ولكن دون جدوى ايضاً .

٣- المحدد المنطقي : وهو لساني ايضاً ولكنه اكثر صرامة من سابقه ولكنه أيضاً لا يحل المشكلة. وهكذا يستمر الأمر في المعنى او الدلالة اذا ما اقترنت مع الأشياء الحسية ، لكننا لم نستطع التحديد فكيف "إن" اذا ما انتقلنا من الأشياء المحسوسة الى الأشياء المجردة ؟ الأمر سيتعد أكثر لذلك سننتقل من النظريات التقليدية الى النظريات الحديثة التي اهتمت بمنطق مختلف . فكانت النظرية المقامية ونظرية الصفات والنظرية السياقية. وقد تابعت هذه النظريات المتباينة إمكانية وضع محددات للدلالة أو المعنى فكان منها من أكدت أهمية تحديد الوحدة الدلالية الصغرى لتصبح منطلقاً اساسياً لملاحقة المعنى ومعرفته ، وخلافاً لما هو معروف في الدراسات المعجمية التي تابعت الكلمات عبر معاجم الألفاظ والمعاني فأن السياقيين رفضوا أي معنى للكلمة اذا كانت مفردة دون ان توضع في سياق إذ قالوا : اعطني سياقاً اسلمك معنى . لكن كيف يمكن ان نحدد السياق نفسه ؟ إضافة الى الاعتراض الذي يقول : ان الكلمة لا يمكن ان تجرد كلياً من المعنى فعلى الأقل نقول : ان للكلمة قيمة ومصطلح القيمة هو مصطلح سوسيري تحديداً وهذا يقودنا الى الإضاءة المتقدمة في تراثنا العربي إذ وجدنا أبا الحسين البصري المعتزلي وهو من تلامذة القاضي عبد الجبار المعتزلي يقول : ان الكلمات تفيد ولا تعني . المهم استمر تتابع النظريات ولهااتها المستمر لتحديد المعنى ولكنه كان دون جدوى . وعلى الرغم من ان هذا النوع من الدراسة والملاحقة

المتواصلة أتاح للفكر اللغوي ان يخوض بعمق في مسائل المعنى وماهيته ومن ثم الوصول الى محدداته . فكانت النظرية المقامية التي عني بها كثيراً بلومفيلد صاحب المذهب السلوكي إذ اهتم بما يحيط باللغة نفسها وكأن الأمر اهتم بخارج ما يطلق عليه المحور اللساني ، إذ ثمة أشياء وأشياء تحيط بل تضيف الى العنصر اللساني معنى اخر فالثقافة والبيئة والأعراف والقيم والتقاليد والمعاني الحافة بشقيها المفرد والجمعي ستأثر على المعنى مؤكداً ولكن الاعتراض قائم ايضاً على امكانية حصر المقامات على نحو دقيق ، الأمر الذي يفرغ هذه النظرية من صرامة التحديد . ويبدو ان هذه الإشكالية دفعت بلومفيلد الى أن ينظر الى المعنى او الدلالة بطريقة مختلفة قد لا يكون الوقت كافياً لذكرها . وهكذا الأمر استمر مع نظرية الصفات التي حاولت ان تحدد الدلالة من خلال تحليل صفاتي للألفاظ الدالة على مراجعها الخارجية مثال (فرس) تحلل لسانياً فاء + راء + سين وتضاف اليها الصفات فرس .. حصان + انثى ولكن التحليل الصفاتي لا ينطبق على المفردات كلها الدالة على مراجعها الخارجية وهكذا يستمر الأمر في محاولة جادة من مفكرين وعلماء مختلفين لوضع محددات معينة للمعنى أو الدلالة، وفي المحاضرات القادمة إن شاء الله سنتحدث عن النظريات الأخرى التي تابعت هذه الأشكالية التي تسببت بأهمية المعنى نفسه ليدخل في منهج مرة ويقصى من منهج اخر مرة أخرى .